حركة التحرير الوطني
الفلسطيني
(فتح)

التنظيم في الحركات الثورية

(6)

دراسات تنظيمية

التنظيم في الحركات الثورية

ان وضوح العلاقة بين الفكر من جهة والتنظيم من جهة اخرى يحدد مفهوم التنظيم بانه الفكر مجسدا بالانسان. ولهذا فان ميلاد الحركة الثورية لا يأتي الا بتجسد الافكار الثورية في الانسان. هذه الحقيقة تقودنا الى القانون الثوري العام الذي ينص على انه "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية". وحتى نستطيع ان نحدد ان حركة ما هي حركة ثورية او غير ثورية فان علينا ان نحدد اولا ان هذه الحركة تمتد فكرا ونظرية اولا، وثانيا ان نحدد ان هذا الفكر وهذه النظرية التي تقوم الحركة على اساسها هي نظرية ثورية.

لقد حددنا سابقا ان تقييمنا لثورية الفكر تتحدد من خلال نظرة هذا الفكر للجماهير. ولكن الفكر الثوري لا يتوقف حقيقة عند مجرد النظرة المجردة للجماهير وانما يحدد طبيعة وضرورة تجسد الثورة بالجماهير حتى تستطيع ان تغير الواقع الفاسد تغييرا جذريا. ان الفكر الثوري لا يرفض الواقع الفاسد فحسب وانما يرفض الاقتناع بالافكار الداعية لمجرد اصلاحه كميا ولهذا فنحن عندما نحدد معنى الثورة فاننا نقول انها التغيير الجذري للواقع الفاسد. تقوم به حركة ثورية مستخدمة اسلوبا ثوريا لنقل الواقع الى مرحلة جديدة. هذا التحديد لمفهوم الثورة يحدد طبيعة الدور التاريخي للثورة عبر مسيرة المجتمعات الانسانية وانتقالها الثوري من مرحلة الى اخرى. ولهذا فنحن نطلعه كلمة ثورة مع تلك الانتفاضة التي قام بها العبيد ضد الاقطاع لانها نقلت المجتمع الانساني من مرحلة الرق الى مرحلة الاقطاع. كما ان الثورة الفرنسية كانت التجسيد الا وضح لمفهوم الثورة القومية البرجوازية المجسدة لمرحلة الرأسمالية القائمة على انقاض مرحلة الاقطاع.

وتحمل الثورة صفات محددة في المراحل الثورية المحددة او باختلاف الحلقة المركزية المستهدفة في التغيير. فهي ثورة تحرر وطني اذا كانت تستهدف تحرير الارض من المستعمر. وهي ثورة تحرر وطني ديمقراطي اذا كانت تجمع بين ثورة التحرير الوطني والثورة الاجتماعية. وهي ثورة اشتراكية اذا كانت تخوض الثورة الاجتماعية لتحدث تغييرات جذرية في حياة المجتمع بحيث تقضي على الطبقات المستغلة وتستأصل كل اشكال الاستغلال.

ان تعريف الثورة بانها التغيير الجذري للواقع الفاسد يجعلنا نحدد النظرية الثورية بانها نظرية التغيير الجذري للواقع الفاسد. ولكن ماذا تعني كلمة نظرية، ما هو المفهوم الذي تعبر عنه هذه الكلمة؟

ان مفهوم النظرية في العلوم الانسانية يختلف عن مفهومها في العلوم الطبيعية والرياضية. بالنسبة لعالم الرياضة تتكون النظرية من مجموعة من العلاقات المنسقة المؤكدة بين متغيرات كمية محددة بحيث اذا طبقت على العالم الطبيعي >الفيزيقي< تتحول الى تنبؤات قاطعة بما يحدث اذا سادت ظروف معينة.

فنظرية "فيثاغورس" في الهندسة المستوية مثلا تنص على ان مساحة المربع المنشأ على الوتر في المثلث القائم الزاوية تساوي مجموع مساحة المربعين المنشأين على الضلعين الاخرين.

ان العلاقة بين هذه المساحات تظل قاطعة ومؤكدة سواء كان المثلث مرسوما على الورق او الخشب او الرخام مادامت ظروف الهندسة المستوية هي السائدة.

اما في العلوم الانسانية فالنظرية غالبا ما تعني نظاما مرجعيا او مجموعة من التعريفات والعلاقات بين مسميات مستخرجة من مشاهدات فعلية او تأملية.

فالنظرية الثورية كنظرية تغيير جذري للواقع الفاسد تحدد اول ما تحدد الهدف الذي تسعى اليه وهو اول التعريفات التي يجب ان تكون واضحة لانها تشكل الركن الاول من اركان النظرية الثورية.

وبعد ان يتحدد الهدف فان الوصول اليه يتطلب معرفة واعية محددة للواقع الفاسد المنوي تغييره جذريا. وتحديد هذا الواقع علميا يشكل الركن الثاني من اركان النظرية لانه يحدد المنطق الذي منه يتم التوجه نحو الهدف.

وتكمن اهمية التحديد السليم للمنطلق بانه يحدد الاختيار السليم للركن الثالث من اركان النظرية وهو كيف نصل الى الهدف؟... كيف ننطلق من حيث نحن الى حيث نريد؟ وهذا الركن هو الاسلوب.

ان اهمية النظرية الثورية الصحيحة والواضحة هي انها تمتلك قاعدة متلامسة مع الواقع وليست مجرد احلام معلقة في الهواء او قوانين لا جدال في صحتها ولكنها ليست في متناول يد الذين سيقاتلون بها، ليست في يد الجماهير.

والنظرية الثورية النابعة من ارض الواقع بتحليلها العلمي الصحيح له تحدد وبصورة واضحة ايضا الهدف والطموح والاسلوب الذي به تنتقل من الواقع الذي تسعى لتغييره الى الواقع الذي تطمح اليه.

والموضوح في النظرية الثورية اساس لصحتها. حيث ان الجماهير البسيطة التي بها تتحول النظرية الى واقع لا تستطيع التعامل مع الالغاز او الخوض في المسيرة الجديدة، دونما دليل يرشدها من اين والى اين وكيف؟ وما الذي ينبغي علينا ان تفعله في كل ظرف يحتمل ان يواجهها وكيف ستتصدى لكل مشكلة ستواجهها؟

وتمتلك النظرية الثورية صحتها من خلال تفاعلها مع نتائج تطبيقها ومعطياته. ان التصور بان النظريات الثورية قوالب جامدة يمكن تطبيقها نسخا دونما تأثر بالزمان والمكان هو تصور خاطىء.

وعندما اشرنا للنظرية على انها دليل عمل فاننا نقصد انها تضع الخطوط الاساسية للممارسة والتي تتأثر بتغيير المكان والزمان والعوامل التي بتحليلها الاولي، ولدت النظرية. ان التغير في الواقع مع المسيرة الثورية يتطلب ديناميكية خاصة لتطبيق النظرية على الواقع المحدد ضمن خطها الاساسي.

والانسان هو الاساس في عملية الصراع فمنه ينطلق الفكر الذي يحدد منطلقه واهدافه واساليبه لتحقيق الاهداف. وتلعب المحاكمة العقلية للانسان دورها بعد الممارسة حيث ان الواقع التحليلي الذي كان سائدا قبل الممارسة سيختلف بصورة او باخرى بعدها. فالممارسة تعطي مردودا ايجابيا في التغيير اذا التزمت بالمفهوم الصحيح للنظرية سواء اكانت النتائج العملية سلبية او ايجابية، حيث انها تستغني النظرية بالنفي او التأكيد لبعض العوامل التي خضع استنباط النظرية لتحليلها . ولكن الممارسة على اساس المفهوم الخاطىء للنظرية تشكل اول مظاهر الخطأ الذي يجب ان يخضع للنقد سواء اكانت نتائجه المنظورة ايجابية او سلبية. ويعتمد استنباط النظرية الثورية اساسا على خط الجماهير. فالجماهير تشكل اهم العوامل التي يعطي تحليل واقعها تحديدا للمنطق والاسلوب وطموحها تحديدا للهدف.

هذا المفهوم للنظرية ولتطويرها بالممارسة العملية يجعلنا نتوقف لنحدد في البداية كيف تتحدد النظرية، وكيف تتجسد ماديا في الانسان لتعطي التنظيم الذي لا تكون هنالك ممارسة بدون وجوده.

كيف تتحدد النظرية؟...

الجماهير الشعبية الفقيرة تعيش في الواقع الفاسد وتعاني منه، ولكن هذه الجماهير لا تستطيع ان تضع نظرية التغيير.

فالشروط اللازمة لاستنباط النظرية الثورية تتطلب درجة من المعرفة لا تكون متوفرة عند الجميع. ولهذا فان القانون العام الذي يحدد ضرورة وجود افراد من المجتمع يملكون الحس الثوري، والنهج الثوري في المعرفة يجب ان يسبقه تحديد النظرية هذا القانون ينص على انه لا نظرية ثورية بدون طليعة ثورية. ومن هنا يتضح ان عملية ميلاد النظرية تقترن اساسا بعملية ميلاد التنظيم لان الفرد او مجموعة الافراد الطلائعيين هم اول من يتجسد منهم الفكر ماديا. ولكن يكفي ان تتجسد الافكار في مجموعة الافراد الذين وضعوها حتى نقول ان لدينا تنظيم؟ الجواب.. لا ولكن هذه المرحلة التي تتبلور منها الافكار لتحدد النظرية نسميها في العمل الثوري مرحلة التكوين ونطلق على تنظيم هذه المرحلة اسم تنظيم البؤرة او النواة. ومرحلة التكوين في العمل الثوري هي في الحقيقة مرحلة التكوين والتبلور الفكري وليس التنظيمي. وما تجسد الفكر في هذه المرحلة في الافراد الا نتيجة توجههم لبلورة الافكار الثورية ففي هذه المرحلة يتم التعرف على القوانين العامة اولا ثم يتم التعرف على الواقع لتحديد القوانين الخاصة ولتثبيت الاسس والعناصر المكونة للنظرية، اما تنظيم هذه المرحلة فانه يتصف بكونه يضم عددا محددا من الافراد المؤهلين فكريا وذوي المواصفات القيادية الذين يرتبطون معظم الاحيان بروابط المعرفة الشخصية التي تغرس بينهم عوامل الثقة المطلقة. ويتوقف مدى نجاح الحركة الثورية في معظم الاحيان على طبيعة الصلابة الثورية لتنظيم مرحلة النواة. فالكثيرون ممن قد يبدعون في مجال المعرفة والتحليل والتفكير واستنباط القوانين لا يمتلكون صفة الصلابة الثورية ولكن هذا فان البنية التنظيمية لا تأخذ الشكل المحكوم بمبدأ المركزية الديمقراطية الا في المراحل الثورية التالية الناتجة عن النشاط التعبوي التنظيمي لتنظيم النواة.

ان اولى المهام الملحة على اعضاء تنظيم النواة هو نشر الافكار الثورية الجديدة هذا الانتشار يخلق بالضرورة حالة جدل حولها مما يخلق المناخ المناسب لبداية استقطاب الانصار وتحديد اسس البناء التنظيمي القادر على تجسيدها والممارسة على اساسها لتغيير الواقع الفاسد جذريا. ان انتشار الافكار الثورية جماهير واكتسبها لشهرة واسعة لا يعني شيئا ما لم تتجسد هذه الافكار في بنية تنظيمية سليمة. ومن هنا فان القانون الثوري العام الذي يحكم هذه المرحلة المتطورة من مراحل العمل الثوري هو انه لا حركة ثورية بدون نظرية تنظيمية ثورية. ولهذا فان المرحلة التالية لمرحلة التكوين تقسم بصفة التركيز على نمو البنى التنظيمية بصورة سليمة وعبر شروط ومواصفات ضرورية. ويتصف تنظيم مرحلة التركيز هذه بانه تنظيم النخبة الثورية ومن الواضح ان عضوية هذه المرحلة تأتي عبر اختيار اعضاء تنظيم النواة لمن يلمسون منهم الكفاءة والقدرة على تجسيد الفكر الثوري.

ومع بداية نشاط هذه المرحلة يبدأ تبلور النظرية التنظيمية ويأخذ مبدأ المركزية الديمقراطية دوره الى التحكم في ديناميكية العمل التنظيمي. ونشاط تنظيم النخبة ينقلنا الى مرحلة التعبئة التي يتوسع عبرها الانتشار الفكري والتنظيمي وتتجسد خلالها المراتب التنظيمية والاطر المحددة والاشكال التنظيمية المتلائمة مع الظروف المختلفة. في هذه المرحلة يبدأ بناء التنظيم الطليعي الذي يجسد النظرية الثورية حقيقة لانه القادر على الممارسة الثورية على اساسها.

ومرحلة بناء التنظيم الطليعي بالثورة هي مرحلة ازدهار مبدأ المركزية الديمقراطية. ففي هذه المرحلة تأخذ الديمقراطية دورها في القاعدة التنظيمية المتلامسة مباشرة مع الساحة الجماهيرية عن طبيعة العلاقة الجدلية بين الثورة وبين الجماهير.

وفي هذه المرحلة تأخذ المركزية التي كانت سائدة في مرحلة التكوين ومرحلة التركيز بالتلاحم الجدلي مع الديمقراطية القاعدة لننشىء حالة ولادة ثورية جديدة وترسخ مبدأ المركزية الديمقراطية ومع تطور النشاط التنظيمي ونمو البنية التنظيمية تصبح المركزية والديمقراطية في حالة تلاحم لا ينفصم وتبدأ المنظمات، القاعديةفي ممارسة دورها الفعال في كافة المجالات ويصبح الفكر الثوري ملكا للجماهير وليس لنخبة او مجموعة من الافراد الذين كان لهم شرف استنباطه. ويسود هذه المرحلة (بصورة متطورة عن الصورة التي كانت سائدة في المراحل السابقة) القانون العام الذي ينص، على انه لا حركة ثورية بدون ممارسة ثورية. ففي هذه المرحلة يتم استخدام الاسلوب الثوري للتغيير بصورة فعالة ويصبح الانتماء للحركة يعني الاستعداد للتضحية لان العنف الثوري والكفاح الشعبي المسلح يبدأ دورهما في التغيير.

ان توقف نمو العمل التنظيمي عند مرحلة التأسيس يحول النظرية الثورية الى مجرد كتاب قد تستفيد منه الاجيال القادمة. اما التوقف عند مرحلة التركيز وعند حدود الاطار تنظيم النخبة فانه يحول النظرية الثورية الى فكر تآمري قد يجد ظروفا مناسبة تجعله يصل الى السلطة عبر انقلابه، ولكنه في جميع الحالات يكون قد انحرف عن مساره الثوري، ومن هنا فان استمرار النمو التنظيمي لتحقيق حالة التعبئة والتنظيم الطليعي هو الضمانة الحقيقية لتجسيد الفكر الثوري. وعند الوصول الى هذه المرحلة تكون الثورة قد بدأت تجسد ذاتها عمليا لتحطيم اركان الواقع الفاسد.

ولا يمكن للتنظيم الطليعي ان يحافظ على طليعته ودوره دون التمسك الحازم بمبدأ المركزية الديمقراطية. ولكي نفهم هذا المبدأ الرئيسي للتنظيم فلا بد من استعراض ميكانيكية الانتماء منذ لحظة الايمان بالفكر الثوري حتى لحظة اكتساب العضوية.

يبدأ الانتماء التنظيمي دائما باختيار حر من الفرد للفكر الذي يؤمن به، والذي يستعد لتجسيده ماديا في ذاته، ويعمل على تحويله الى حقيقة عبر الممارسة.

ولا يأتي هذا الاختيار الحر نتيجة حالة نفسية انفعالية، وانما نتيجة تفاعل خصب بين الفرد والعقل الانساني. وهذا الانتماء الطوعي من قبل الفرد، لا يتجسد في الواقع البنيوي التنظيمي الا اذا تلاقت ارادة التنظيم مع ارادة الفرد. وهذا يعني انه ليس من حق كل من يريد الانتماء لتنظيم ما ان يصبح عضوا فيه. فالشروط التي يتطلبها التنظيم من الفرد قبل ان يقبله عضوا هي التي تحدد امكانية الانتساب التنظيمي او عدمه. فكما ان الفرد يجد من بين مجموعة الافكار المطروحة لتغيير الواقع الذي يعيشه بالوسائل والاساليب المختلفة تلك الحركة التي تعبر عن قناعاته فيقرر الانتماء لها، فان التنظيم ايضا لا يقرر ادخال الاعضاء الجدد الا بعد اقتناع بانهم اهل لعضويته، والفرد في المجتمع، قبل انتمائه لاية حركة ثورية، يضع بينه وبين نفسه مجموعة من الشروط التي يجب ان تتوفر في الحركة التي يطمح الى الانتساب لها. وبعد دراسته لمعطيات الواقع يقر اي من الافكار، المطروحة اقرب الى تحقيق تلك الشروط فيختار. وقد يجد الفرد نفسه نتيجة احتكاك مباشر مع اعضاء حركة ثورية ما، مقتنعا بانها تعبر عن افكاره دون ان يطلع على الافكار الاخرى او تسمح له الظروف بالمقارنة فيقرر الاختيار الوحيد الذي اقتنع به. وفي كلا الحالتين يأتي التقرير بالاختيار نتيجة القناعة بالنظرية الثورية التي تقوم الحركة على اساسها، وبمدى مطابقة هذه النظرية لواقع الممارسة كما يلمسها.

والنظرية التي يبدأ الفرد قبل انتسابه بمعرفتها تتلخص باطلاعه على البرنامج السياسي، للحركة وقبوله به واطلاعه على النظام الداخلي وطبيعة الحياة الداخلية للحركة الثورية واقتناعه بها.

اما ارادة التنظيم وموافقته على الانضمام الى عضويته فانها ايضا تتطلب دراسة من جهة، اللجان المختصة بالعضوية لامكانيات الفرد الحقيقية. فالدوافع التي تجعل الافراد يطلبون الانتساب الى

تنظيم وقدرته على انتقاء الاعضاء الذين يملكون بالفعل شروط الانتساب وحتى لا تقع التنظيمات الثورية في مصائد القوى المضادة عبر المندسين والانتهازيين فانها لا تقبل منح عضويتها الا بعد اقتناع كامل بان الفرد يطلب الانتماء عن وعي وايمان بالنظرية الثورية للحركة اولا، وانه قادر ومؤهل لتحمل عبء العضوية ومسؤوليتها وقادر على الاسهام النشيط الفعال في النضال من اجل تحقيق اهداف الحركة الثورية.

ثانيا:- وليس مطلوبا من التنظيم ان يوافق على منح العضوية لكل من يطلبها فورا حتى وان تحققت القناعة اللحظية فشروط الانتساب لتنظيمات الحركة الثورية تحدد ضرورة تزكية طالب الانتساب من قبل عضو او اكثر من الملتزمين بالحركة، وهذا ايضا لا يكفي حيث ان هنالك مرحلة تجريبية لابد ان يمر بها العضو تختلف تسميتها وهدفها بين حركة ثورية واخرى، فهي مرحلة العضو النصير او المرشح او الاثنين معا في بعض الحركات، وهي ايضا تتراوح بين الا شهر والسنوات طبقا للانظمة الداخلية المختلفة، وفي المراحل التجريبية يتم تدريس العضو وتجربته لتتحق قناعة التنظيم بأهليته للانتساب كعضو عامل في الحركة الثورية.

يتضح مما تقدم ان لحظة الاختيار الحر الطوعي للفرد والتي يقرر فيها الانتساب لتنظيم حركة ما تأتي دائما متقدمة على اللحظة التي يقرر فيها تنظيم الحركة الثورية منح حق الانتساب للعضو واكتسابه لا يأتي الا نتيجة التفاعل الجدلي بين اللحظتين.

فلحظة الاختيار الحر للفرد هي اللحظة الديمقراطية وهذه لا تحقق العضوية الا بتفاعلها، مع لحظة التنظيم (اللحظة المركزية) بمنح العضوية وبهذا التفاعل تتحقق المركزية الديمقراطية التي تشكل المبدأ الرئيسي للبنية التنظيمية حيث انها تحقق المركزية النابعة من اختيار ديمقراطي حر.

ان الممارسة على اساس المركزية الديمقراطية منذ البداية ومع اللحظات الاولى للانتساب لا تلغي حقيقة وجود انتسابات كثيرة للحركات الثورية تتم دون الاخذ بمبدأ المركزية الديمقراطية ومرد هذه التجاوزات هو انتقال بعض الامراض السائدة في المجتمع الى داخل التنظيم. فقد تأخذ المواقف المزاجية والفردية دورها في منع العضوية او منحها. وقد لا تتطابق تزكيات الاعضاء مع حقيقة طالب الانتساب، ومن الضروري ان يكون جدل اللحظة الديمقراطية واللحظة المركزية مفهوما على حقيقته عبر سلسلة الاوضاع الذاتية والموضوعية التي تعيشها الحركة الثورية. ففي حالات التكوين الاولى لخلايا الحركة او في الظروف الشديدة السرية التي تتعذر فيها الاجتماعات ويتطلب تنسيب الاعضاء اعلى درجات السرية، يصبح الامتداد التنظيمي افقيا وليس هرميا ويقوم العضو بدور لجنة بكاملها. فهو الذي يحاول استقطاب الاعضاء الجدد، وهو الذي يزكيهم وهو الذي يحدد نوعية المهمات التي على اساسها يقرر قبولهم ويضمهم الى تنظيم الحركة.

وفي مثل هذه الحالات تتقارب اللحظة الديمقراطية واللحظة المركزية الى درجة التداخل فقد تأتي اللحظة المركزية سابقة للحظة الديمقراطية وذلك عندما يعرض عضو الحركة على احد الا شخاص، الانضمام الى الحركة وذلك بعد دراسته واستقصائه له. وقد يأتي العرض والقبول متناغمين وفي نفس الجلسة.

ان اكثر الظروف الذاتية والموضوعية خطورة على البيئة التنظيمية للحركة الثورية وعلى الالتزام بمبدأ المركزية الديمقراطية هي تلك التي تأتي في مرحلة الانتقال من السرية الى العلنية. وحيث انه من الطبيعي ان يأتي هذا الانتقال نتيجة مرور الحركة الثورية بمرحلة مد وانتصارات، فان الاقبال الجماهيري على الحركة والكم البشري الهائل الذي يتقدم طالبا الانتساب للثورة يشكل حالة ارباك شديدة لقيادة الحركة ولكوادرها فالحركة الثورية التي حققت انتصارات حقيقية تكون بالنتيجة قد قدمت تضحيات حقيقية وفقدت عددا لا يستهان به من كوادرها عندما يأتي السيل الجماهيري طالبا التنظيم

تكون الحركة غير قادرة على استيعاب هذا المد استيعابا خلاقا، وتصبح اللحظة الديمقراطية ضاغطة وفي مستوى القرار بحيث لا تفسح المجال للحظة المركزية بأن تأتي بعد تطبيق شروطها الاساسية، وفي مثل هذه الحالة تنطبق اللحظة الديمقراطية على اللحظة المركزية المرتبكة وتعتبر البنية التنظيمية في اصعب مراحل نقائها. وقد تصبح مرحلة المد الجماهيري حدا فاصلا، عند تقييم الاعضاء في المستقبل فالذين التحقوا بالحركة الثورية قبل حدوث المد وفي ظروف الانتقائية والتجريبية الصعبة يصنفون بطريقة تختلف عن اولئك الذين انضموا للحركة في مرحلة انتصارها وازدهارها ودون المرور بالتجارب اللازمة وبمراحل الاعداد الفردية.